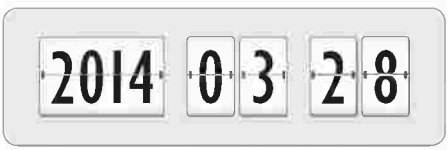

في خطاب واسع الانتشار في أيلول/سبتمبر عام 2010م أمام مجلس العلاقات الخارجية، أكدت أولوية قوة الولايات المتحدة وانخراطها في العالم، معلنة الزمن الحالي: «لحظة أمريكية جديدة عظيمة»، ومشيرة إلى عدد كبير من التحركات إبان ولايتي وزيرة للخارجية، من إحياء المباحثات الشرق أوسطية إلى مساعدة الولايات المتحدة عقب الفيضانات الباكستانية في عام 2010، قلت إن الولايات المتحدة عادت، بعد سنوات من اللايقين والحرب، تتولى قيادة العالم في هذا القرن الجديد.

ومع احتمال تعرض الديمقراطيين لخسائر كبيرة في انتخابات 2010م النصفية، وتدهور شعبية الرئيس أوباما السريع في استطلاعات الرأي، كان ثمة كلام كواليس في واشنطن عن احتمال صيرورتي مرشحة نائب الرئيس مع أوباما في 2010م تعزيزًا لحظوظه الانتخابية، هل ترين أنني كنت أكثر جاذبية من جو بايدن، يا دكتورة؟

ابتسمت إلا أنني لم أرد على السؤال.

لم تكن هيلاري معجبة بلجوئي إلى امتياز المحللة النفسية المتمثل بالتزام الصمت، تأففت وتابعت: بعض طبعات هذا اللغو جعل نائب الرئيس بايدن يحل محلي في وزارة الخارجية، ألا يوجد لدى الناس أي شيء أهم من اللغو؟ وحين ذُكرت فكرة المقايضة الوظيفية أمامي، اكتفيت بالابتسام وهز الرأس، وبعد نحو شهرين أجهز الرئيس أوباما كليًّا على الفكرة، قائلًا إن الرأي «عديم الأساس تمامًا، وإننا كلينا، ناجحان نجاحًا ممتازًا في منصبينا». ذلك هو كل ما أنا بحاجة إليه: أن أصبح نائبة رئيس! لن أقبل بذلك المنصب ولو أعطوني سطلًا من الذهب فوقه! أليس التعب المصاحب للاضطلاع بمنصب وزارة الخارجية كافيًا؟!

في صيف عام 2010م تم إحياء عمليات السلام المشلولة في النزاع الإسرائيلي–الفلسطيني، حين وافق البلدان أخيرًا على التفاوض، ومع أن الرئيس أوباما كان ضابط إيقاع التحرك، فإنني كنت قد أمضيت أشهرًا من ملاطفة الطرفين المعنيين لمجرد إجلاسهما إلى الطاولة، وإقناع الفلسطينيين من خلال ترتيب الدعم لمفاوضات مباشرة مع مصر والأردن، ومتحدثة في أيلول/سبتمبر في اجتماع بوزارة الخارجية بين رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو ورئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس ذكَّرتهما بأننا نعرف– من التجربة– أن الأمر سيكون صعبًا.

كان دوري في الوساطة هو الحلول محل جورج ميتشل، مبعوث الولايات المتحدة الخاص إلى الشرق الأوسط، لدى تعرض المباحثات لخطر الانهيار. بوجه عام لم تحظَ المباحثات إلا بالقليل من فرص النجاح، وقد واجهت تاريخ سلسلة طويلة من الإخفاقات السابقة بما فيها شبه– ضياع بل في قمة كامب ديفد عام 2000م، غير أن دوري البارز في هذه الجلسات أدى إلى قذفي إلى بؤرة أبعد من الأضواء الدولية وترك بصمته على تراثي وزيرة.

سألتها: وكيف ذلك؟

كما لو كنت لم أسافر كفاية، أقدمت في تشرين الأول/أكتوبر بركبتين مرتجفتين، على الانطلاق إلى جولة على سبع دول في آسيا وأوقيانوسيا، وزير خارجية نيوزيلندا موراي ماكولي وأنا، اجتمعنا في نيوزيلندا ووقّعنا إعلان ولنغتون لإحياء ذكرى العلاقات الوثيقة بين بلدينا، ولوضع الإطار المناسب لشراكة إستراتيجية أمريكية–نيوزيلندية جديدة، فشكل اتفاقنا تعافيًا للعلاقة الدبلوماسية والعسكرية المشلولة منذ زمن طويل بين نيوزيلندا والولايات المتحدة.

كان التوقيع بعد خمس وعشرين سنة من قيام الولايات المتحدة، في أعقاب حادثة يو أس أس بوكانان، بتجميد التزامات معاهدة آنزوس (ANZUS) مع نيوزيلندا، كنا قد طلبنا قيام يو أس أس بوكانان بزيارة البلد، لاختبار سياسة نيوزيلندا البريئة نوويًّا، رفضت الولايات المتحدة تأكيد أو نفي ما إذا كانت حاملة البوكانان مسلحة نوويًّا، والحكومة النيوزيلندية حظرت دخول البوكانان، ونتيجة لذلك قطعنا العلاقات الدبلوماسية، ودامت القطيعة خمسًا وعشرين سنة! كنت سعيدة برتق صدع قديم. لعل هذا– كما أرى– هو العمل الدبلوماسي الدولي بأفضل تجلياته.